

نظرة تاريخية

في حدوث المذاهب وانتشارها

وتريد بها الاربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، المعمول بها عند جمهور المسلمين الى اليوم، وهي التي كتب لها البقاء والتغلب على سواها من مذاهب اهل السنة كذهب سفيان الثوري بالكوفة والحنس البصري بالبصرة والاوزاعي بالشام والاندلس وغيرهما وابن جرير الطبري والبي ثور ببغداد وداود الظاهري في كثير من البلدان وغير ذلك من مذاهب فقهاء الامصار. وكانت الفتيا قبل حدوث هذه المذاهب تؤخذ في عصر الصحابة عن القراء منتهرة. وهم الحاملون لكتاب الله العارفون بدلالاته فلما اتقضى عصرهم وخلف من بعدهم التابعون اتبع اهل كل مصر فنيا من كان عندهم من الصحابة لا يتعدونها الا في اليسير مما بلغهم عن غيرهم. فاتبع اهل المدينة في الاكثر فتاوي عبدالله بن عمر، واهل الكوفة فتاوي عبدالله بن مسعود واهل مكة فتاوي عبدالله بن عباس، واهل مصر فتاوي عبدالله بن عمرو ابن العاص.

واقي بعد التابعين فقهاء الامصار كابني حنيفة ومالك وغيرهما من ذكرناهم ومن لم نذكرهم فاتبع اهل كل مصر مذهب فقيهه في الاكثر ثم قضت اسباب بانتشار بعض هذه المذاهب في غير امصارها وانتقراض بعضها، فلم يطل العمل بمذهب الثوري والبصري لقلة اتباعهما ويطل العمل بمذهب الاوزاعي بعد القرن الثاني وبمذهب ابي ثور بعد الثالث وابن جرير بعد الرابع كما انقرض غيرها من المذاهب، الا الظاهري فقد طالت مدته وزاحم الاربعة بال جعله المقدمي في احسن التقاسيم رابع المذاهب في زمانه في القرن الرابع بدل الحنبلي وذكر الحنبلية في اصحاب الحديث وعده ابن فرحون في ادياج الخامس من المذاهب المعمول بها في زمانه اي في القرن الثامن ثم درس بعد ذلك ولم يبق الا الاربعة ومذاهب اخرى خاصة بطوائف من المسلمين لا يعدها جمهورهم من مذاهب اهل السنة ولهذا لم تتعرض لذكرها. وذكر ابن خلدون ان الظاهري درس بدروس اثنته وانتكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الكتب وربما يمكن متكلفو انتحاله عليها لاختلافهم منها فلا يحولون بطائل ويصيرون الى انتكار الجمهور عليهم، ولم يبق الا مذهب اهل الرازي من العراق واهل الحديث من الحجاز

وذلك بعد ان رحل الى الامام مالك واخذ عنه ولم يصادفه علماً فاحاله على ابن وهب كما ذكروا بل قال له لما استزاده بعد فراغه من الجامع منه: حبيبك مالك اناس . اير: حسبك يا مغربي ان احببت الرأي فعليك بالعراق .

وكان اهل مصر لا يعرفون هذا المذهب حتى ولى قضاءها اسماعيل بن اليسع الكوفي من قبل المهدي سنة ١٦٤ وهو اول قاضٍ حنفي بمصر واول من ادخل اليها مذهب ابي حنيفة وكان من خير القضاة الا انه كان يذهب الى ابطال الاحباس فنقل امره على اهل مصر وقالوا احداثا احكاماً لا نعرفها ببلدنا فعزله المهدي . ثم فشا فيها بعد ذلك مدة تمكن العباسيين الا ان القضاء بها لم يكن مقصوراً على الحنفية بل كانت يتولاه الحنفون تارة والمالكيون والشافعيون اخرى الى ان استولى عليها الناطقيون فاطهروا مذهب الشيعة الاسماعيلية وولوا القضاء منهم فقوي هذا المذهب بالدولة وعمل باحكامه الا انه لم يقض على المذاهب السنية في العبادات لانهم كانوا يبيحون للارعية التعبد بما يشاءون من المذاهب . قال في صبح الاعشى انهم كانوا يتالفون اهل السنة والجماعة ويكفونهم من اظهار شعارهم على اختلاف مذاهبهم ولا يمنعون من اقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك ومذاهب مالك والشافعي وحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب ابي حنيفة ، وبراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به اجابوه انهي . فلنابل ان اقام وزيرهم ابو علي احمد بن الفضل بن امير الجيوش قضاء من المالكية والشافعية لما سخر على الخليفة الحافظ لدين الله وسجنه فانه اعلن بمذهب الامامية واقام اربعة قضاة : اثنا شيعيان احدهما امامي والاخر اسماعيلي ، واثنا سنيان احدهما مالكي والاخر شافعي ، مكان كل قاضٍ منهم يحكم بمذهبه ويورث بمقتضاه . فلما قتل ابو علي عاد الامر الى ما كانت عليه من مذهب الاسماعيلية ، ويظهر لنا ان غض الناطقيين من المذهب الحنفي لم يكن الا لانه مذهب الدولة العباسية المتناوثة لم في المشرق .

ثم لما قامت الدولة الايوبية بمصر وكان سلاطينها شافعية قضوا على التشيع فيها وانشأوا المدارس للفقهاء الشافعية والمالكية وكانت نور الدين الشهيد حنفياً فنشر مذهبه ببلاد الشام ومنها كشرت الحنفية بمصر ، وقدم اليها ايضا عدة من بلاد المشرق فبنى لم صلاح الدين الايوبي المدرسة السيوفية بالقاهرة ، وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثروا بمصر والشام من حينئذ ، ولكن لم يبلغ المذهب مبلغه في القوة والكثرة بمصر الا في آخر هذه الدولة واول من رتب دروساً اربعة للمذاهب الاربعة في مدرسة واحدة الصالح نجم الدين ايوب سفي مدرسة الصالحية بالقاهرة سنة ٦٤١ ثم كثرت هذا النوع من المدارس في الدولتين التركية

والفتنة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إيسار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم
صرف البرزخي وإعاد الأمر إلى حقه وأجراه على قديم رسمه وحمل الحنفية على ما كانوا عليه
من العناية والكرامة والحرمة والاعزاز وتقديم اليهم أن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقاً
ولا يردوا عليه سلاماً وخلع على أبي محمد الأكفاني ، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة وأهـ
لـ التساهل عليه والانحراف عنه ذلك في سنة ٣٩٣ وانصل ببلاد الشام ومصر .

وكان الغالب على إفريقية السنين والآثار إلى أن قدم عبدالله بن فروخ أبو محمد الفارسي
بمذهب أبي حنيفة ثم غلب عليها لما ولي قضاءها أسد بن الفرات بن سنان ثم بقي غالباً عليها
حتى حمل المعز بن باديس أهلها على مذهب مالك وهو الغالب إلى اليوم على أهلها إلا قليلاً
منهم يقلدون المذهب الحنفي . وفي الديباج لابن فرحون أن الحنفي ظهر ظهوراً كثيراً
بإفريقية إلى قرب سنة ٤٠٠ فانقطع ودخل منه شيء ماوراءها من المغرب قديماً بالاندلس
ومدينة فاس . وفي أحسن التقاسيم للمقدمي أن أكثر أهل صقلية حنفيون وذكر أيضاً أنه
سال بعض أهل المغرب « كيف وقع مذهب أبي حنيفة رحمه الله اليكم ولم يكن على سائلكم
قالوا : لما قدم وهب بن وهب من عند مالك رحمه الله وقد حاز من الفقه والعلوم ، أحار
استنكف أسد بن عبدالله أن يدرس عليه لجلالته وكبر نفسه فرحل إلى المدينة ليدرس على
مالك فوجده غليلاً فلما طال مقامه عنده قال له ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي
وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على أسد وسأل هل يعرف لمالك نظير فقالوا فتى بالكوفة
يقال له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة . قالوا فرحل إليه وأقبل عليه محمد أقبالاً لم يقبله
على أحد ورأى فيها وحرصاً فزنه الفقه زقاً . فلما علم أنه قد استقل وبلغ مراده فيه سببه إلى
المغرب فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروغاً حيرتهم ودقائق عجبهم ومسائل ماأمنت
على أذن ابن وهب ونخرج به خلق وفشا مذهب أبي حنيفة رحمه الله بالمغرب . قلت فلم لم
يفش بالاندلس ؟ قالوا لم يكن بالاندلس أقل منه هاهنا ولكن تناظر الفريقان يوماً بين يدي
السلطان فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة فقال مالك ؟ قالوا من المدينة
قال عالم دار الهجرة بكفينا . فامر بإخراج أصحاب أبي حنيفة وقال لا أحب أن يكون في
عملي مذهبان . وسمعت هذه الحكاية من عدة مشايخ من الاندلس » انتهى . قلنا وفي هذه
القصة ما لا يخفى من نظر فان وهب بن وهب هذا لا نعلم أحداً ذكره فممن أخذ عن الإمام
مالك وإنما أخذ عنه عبدالله بن وهب وهو لم يرحل إلى المغرب بل كان بمصر ومات بها .
وأما أسد بن عبدالله فصار به على ما يظهر أبو عبدالله ويكون المراد به أبا عبدالله أسد بن
الفرات فهو الذي لقي محمد بن الحسن ونفقه بأصحاب الإمام أبي حنيفة ونشر مذهبه بإفريقية

الطحاوي التي زعم انها ما كان عليه الامام ابو حنيفة وصاحبه فلم يجد فيها الا ثلاث مسائل خلف فيها الاشعرية ثم تصفح كتب الحنفية فوجد المسائل التي يخلفون فيها الاشعرية بيّنة العقائد ثلاث عشرة مسألة منها ست معنوية والباقي لفظي . قلنا وكأنه يريد ان خلافتهم في هذه المسائل لا يخرجهم عن كونهم اشعرية وان سموا بالمازبديّة لتصرّيحهم بعد ذلك بانها كالمسائل التي اختلف فيها الاشاعرة فبما بينهم ولان المسائل الثلاث عشرة لم يثبت جميعها عن الشيخ ولا عن الامام ابي حنيفة .

المذهب المالكي

نسبة الى الامام مالك بن انس الاصمعي رضي الله عنه المولود سنة ٩٣ على الاشهر والمتوفي بالمدينة سنة ١٧٩ على الصحيح وهو ثاني الاربعة في القدم ويقال لاصحابه اهل الحديث واختص امامه بمدرسة آخر الاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل اهل المدينة .

نشأ بالمدينة موطن الامام ثم انتشر في الحجاز وغلب عليه وعلى البصرة ومصر وما والاها من بلاد افرقية والاندلس وصقلية والمغرب الأقصى الى بلاد من اسلم من السودان . وظهر ببغداد ظهوراً كبيراً ثم ضعف فيها بعد القرن الرابع وضعف بالبصرة بعد الخامس وغلب في خراسان على قزوين وابهر وظهر ببغداد واولا وكان له بها وبغيرها ائمة ومدرسون . وكان ببلاد فارس وانتشر باليمن وكثير من بلاد الشام وكان نخل بالمدينة فلما تولى قضاءها ابن فرحون سنة ٢٩٣ اظهره بعد خموله .

واول من قدم به الى مصر على ما في خطط المقرئ يزي عبدالرحيم بن خالد بن زيد بن يحيى مولى جمع ثم نشره بها عبدالرحمن بن القاسم فاشتهر بها أكثر من مذهب ابي حنيفة لتوفر اصحاب مالك بها ولم يكن مذهب ابي حنيفة يعرف بمصر ، وبواقفه ما في الاوائل للسيوطي ولكنه ذكر في حسن المغامرة نقلاً عن الديباج انه عثمان بن الحكم الجذامي ، وعبارة الديباج « مشهور من اصحاب مالك المصريين وهو اول من ادخل علم مالك بمصر ، ولم تنبت مصر انيل مته » الى ان قال وتوفي سنة ١٦٣ ، وكلا القولين صحيح في ترجمة عثمان الجذامي من تهذيب التهذيب للحفاظ ابن حجر ما نصه « وقال ابن وهب : اول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبدالرحيم ابن خالد بن زيد » انتهى . فالظاهر انها بعد ان اتما الاخذ عن الامام عاداً معاً الى مصر ونشراً بها عليه .

والجركسية وحدث في الاولى جعل القضاة اربعة فعاد الحنفية الى القضاء بعد انقطاعه عنهم مدة الفاطميين والانتصار مدة الايوبيين على نواب منهم ومن المالكية والحنابلة عن القاضي الشافعي . ثم لما استولى العثمانيون على مصر حصروا القضاء في الحنفية وأصبح الحنفي مذهب امراء الدولة وخاصتها ورغب كثيرون من أهل العلم فيه لتولي القضاء الا انه لم ينتشر بين أهل الريف والصعيد انتشاره في المدن ولم يزل كذلك الى اليوم .

اما بدء دخوله في سائر البلاد الاسلامية فيعسر تعيينه لكل بلد وغاية ما وقفنا عليه من انتشاره في القرن الرابع ما ذكره المقدمي في احسن التقاسيم في كلامه على كل اقليم ومنه يعلم انه كان الغالب على أهل صنعاء وصعدة باليمن والغالب على فقهاء العراق وفصاته وكانت منتشرًا بالشام تكاد لا تخلو فيها قصبة او بلد من حنفي وربما كان القضاء منهم ، الا ان اكثر العمل فيها كان على مذهب الفاطمي في زمانه اي كما كان بمصر . وكان في اقليم الشرق اي خراسان وسجستان وما وراء النهر وغيرها الا في بلاد منها ذكرها كانت اهلها شافعية . وكان أهل جرجان وبعض طبرستان من اقليم الديلم حنفية . وكان غالبًا على أهل ديل من انام الرحاب الذي منه الران وارمينية واذر بيجان وتبريز وموجوداً في بعض مدنه بالاعلبية . وكان غالبًا على أهل الرأي من اقليم الجبال وكثيراً من اقليم غوزستان المسمى قديمًا بالامواز وكان لهم به فقهاء وائمة وكبراء . وكان باقليم فارس كثير من الحنفية الا ان اللمبة كانت في السنين للظاهرية وكان النصاء فيهم . وكانت قصبات السند لا تخلو من فقهاء حنفية .

وفي معجم البلدان لياقوت ان أهل الري كانوا ثلاث طوائف : الشافعية وهم الاقل وحنفية وهم الاكثر وشيعه وهم البواد الاعظم ثم في أهل المذهبيين وغلب الشافعية على ما سياتي . وذكر ايضا ان أهل سجستان كانوا حنفية . وذكر بن تقي في المنهل الصافي ان ملوك بنباله بالهند كانوا جميعاً حنفية . وسنذكر في الخاتمة مبلغ انتشار هذا المذهب اليوم في البلاد

و يتبع الحنفية في العقائد مذهب الامام ابي منصور محمد المازدي الحنفي . ليس بين اصحابه واصحاب الامام الاشعري خلاف الا في بضع عشرة مسألة . ومنهم اشعرية ولكن على فلة حتى قيل : من المستظرف ان يكون حنفي اشعرياً . والذي في طبقات السبكي ان الحنفية اكثرهم اشاعرة اعني يعتقدون عقيدة الاشعري لا يخرج منهم الا من لحق بالمعتزلة وذكر انه تأمل حميدة

بالاندلس . وكان رائدا للجماعة شيطون وهو اول من ادخل الموطن الى الاندلس مكملا متقنا ، فآخذ عنه يحيى بن يحيى ، ثم اشار على يحيى بالرحيل الى مالک فرحل واخذ عنه فكان انتشار المذهب به ويزيد وبعيسى بن دينار . وقال في موضع آخر : ان سبب حمل ملك الاندلس الناس على هذا المذهب في بعض الاقوال ان الامام مالكا سال عن سيرته بعض الاندلسيين فذكروا له عنها ما اعجبه فقال نال الله تعالى ان يزين حرمنا بملككم او كلاما هذا معناه وذلك لان سيرة بني العباس لم تكن مرضية عنده ولقي منهم ما لم يوافق ما هو مشهور فلما بلغ قوله ملك الاندلس مع ما علم من جلالة مالک ودينه حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الاوزاعي قلنا وقد ذكر هذا السبب ابن نباتة ايضا في مريح العيون الا انه جعل ذلك في زمن عبدالرحمن الداخل والذي اجمع عليه المؤرخون ان دخول المذهب كان في زمن ابنه هشام .

ثم زاد انتشار هذا المذهب بالاندلس والمغرب بانتقال الفتيا اليه في دولة الحكم بن هشام وكان يحيى بن يحيى بن كثير مكينا عنده مقبول القول فصار لا يولي القضاء الا من اشار به فانشر به مذهب مالک كما انتشر الحنفي بابي يوسف في المشرق .

وعلى ابن خلدون غلبة هذا المذهب على المغرب والاندلس تعليلا آخر فقال « امام مالک رحمه الله تعالى فاخص بذهبه اهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا انهم لم يقدروا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة بومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فانصرفوا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالک وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلده دين غيره ممن لم تصل اليهم طريقته ، وايضا قال البداية كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون المعضرة التي لاهل العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ، ولذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذوا تنقيح المعضرة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب » انتهى ، فلنا ونقدم في الكلام على الحنفي شئ عن سبب انقطاعه بالاندلس وغلبة المالكي في ارواه المقدسي .

ولما قامت دولة بني تاشفين بالمغرب الاقصى في القرن الخامس واستولوا على الاندلس وقولي ثانيهم امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اشتد ابشاره لاهل الفقه والدين فكان لا يقطع امرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء واظم القضاء بان لا يتوا حسكا في صغير الامور وكبيرها الا بحضور اربعة من الفقهاء فعظم امر الفقهاء ولم يكن يقرب منه ويحيطي عنده الا من علم مذهب مالک فنفتت في زمنه كتب المذهب وعمل بقتضاها وبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يكن احد

وفي خطط المقرئ يزي ان هذا المذهب مازال معمولاً به بمصر مع الشافعي وبولي القضاء من يذهب اليها او الى مذهب ابي حنيفة الى ان قدم القائد جوهر فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به في القضاء والفتيا وانكر ما خالفه . فلتا ثم عاد الى الانتعاش في الدولة الايوبية وبنيت لفقهاه المدارس ثم عمل به في القضاء استقلالاً لما احدث الظاهر ببرس في الدولة التركية البحرية القضاة الاربعة وصار قاضيه الثاني في المرتبة بعد الشافعي وكان القضاء في الايوبية للشافعية ولقاضيهم نواب من المذاهب الثلاثة . ولم يزل منتشراً بمصر الى الآن معادلاً للشافعي ، واكثر انتشاره في الصعيد .

وكان الغالب على اهل افريقية السني ثم غلب الحنفي كما تقدم فلما تولى عليها المعز بن باديس سنة ٤٠٧ حمل اهلها واهل ما ولاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وحسم مادة الخلاف في المذاهب - انتمت له الغلبة عليها وعلى سائر بلاد المغرب وفي ذلك يقول مالك بن المرحل المالكي شاعر المغرب :

مذهبي ثقيل خد مذهب سيدي ماذا ترى في مذهبي
لا تخاف مالكا في رأيه فعليه جل أهل المغرب

وهو الغالب على هذه البلاد الى اليوم . وذكر الغامسي في العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ان المغاربة كلهم مالكية الا النادر ومنهم من ينتحلون الاثر .

وكان الغالب على اهل الاندلس مذهب الاوزاعي واول من ادخله بها صمصمة بن سلام لما انتقل اليها وبقي بها الى زمن الامير هشام بن عبدالرحمن ثم انقطع مذهب الاوزاعي منها بعد المائتين وغلب المالكي . وفي نيل الابتهاج ان اهل الاندلس التزموا مذهب الاوزاعي حتى قدم عليهم الطبقة الاولى من لقي الامام مالكا كزياد بن عبدالرحمن والغازي بن قيس وقرعوس ونحوهم فنشروا مذهبه واخذ الامير هشام الناس به فالتزموه وحملوا عليه بالسيف الا من لا يؤبه له .

وفي بغية المتحسني للضي ان هذا المذهب انتشر بالاندلس يحيى بن يحيى بن كثير ونفقه به جماعة لا يحصىون وتوفي سنة ٢٣٤ وقيل ٢٣٣ . وفي خطط المقرئ يزي والديباج لابن فرحون ان اول من ادخله بالاندلس زياد بن عبدالرحمن القرطبي الملقب بشبطون قيل يحيى بن يحيى وكانت وفاة زياد سنة ثلاث . وقيل اربع وقيل تسع وتسعين ومائة . وفي نفع الطيب لتفصيل لذلك ملخصه ان جماعة من امثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن ابي هند وغيرهم رحلوا الى الحج في زمن هشام بن عبدالرحمن والد الحكم فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالاندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه